The Rhetorical Study- A Modern Rhetorical Vision: Muhammad Hussein al-Saghir as an example

- Prof .Dr. Adil Radhi Jabir Alzirgany
University of Sumer
E-mail: prof.dr.adel@uos.edu.iq

- prof. Dr. Abdul Hasan Ali Mhalhil
University of Thi-Qar / College of Arts
E-mail: abedul hssan mulhel@utq.edu.iq

Abstract:

Muhammad Hussein Alzaghir is a contemporary Iraqi researcher, thinker ، critic, and a rhetorician who has worked as a university senior lecturer in Iraq. He has publications and researches in exegesis, rhetoric, and criticism .He has a modern approach in tackling the classical Arabic rhetoric studies especially the Quranic metaphor and its relation to Arab eloquence techniques ،the study of semantics and the way to remove the grammatical features associated with it .Al-Saghir stresses that the modern approach should be used to study metaphor without citing examples which strip it off its artistic value especially the Qur'anic metaphor and its connection to the psychological aspect ؛as for semantics, alSaghir connects it to rhetoric by stripping it off grammatical features and focuses only on the aesthetic effects .al-Saghir adopts this approach to study Arabic rhetoric to make it a means of aesthetic and taste not a teaching method that researchers avoid. Therefore ،in this study, the researchers try to investigate Dr. al-Saghir's ideas in this field to introduce them to other researchers and students.

Keywords: Rhetorical lesson, Muhammad Hussein Alzaghir, Arabic rhetoric.

الدرس البلاغي – رؤية معاصرة
محمد حسين الصغير مثالاً

أ.د. عادل راضي جابر
رئيس جامعة سومر
E-mail: prof.dr.adel@uos.edu.iq

أ.د. عبدالحسن علي مهلهل
جامعة ذي قار/ كلية الاداب
E-mail: abedul hssan mulhel@utq.edu.iq

الملخص :

محمد حسين الصغير ، باحث عراقي معاصر ، شاعر ومفكر وناقد، بلاغي ،عمل استاذاً جامعياً ولما يزل. كتب مؤلفات وأبحاث نقدية وبلاغية وقرآنية ، لعل أشهرها تاريخ القرآن، الصورة الفنية في المثل القرآني ، الصور الأدبية في الشعر الأموي، علم المعاني بين الأصل النحوي والموروث البلاغي، ظاهرة الوحي والمستشرقين/ نقد وتحليل، المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم/ دراسة مقارنة، نظرية النقد العربي في ثلاث محاور متطورة.

فكرة البحث مستوحاة من رؤية الدكتور محمد حسين الصغير في دراسة البلاغة العربية وفنونها وأساليبها دراسة تجمع بين الموروث البلاغي غير الهجين والمعاصر التي دعا اليها رهط من الباحثُين العرب والعراقيين في العصر الحديث...

وهي دراسة جديرة بالعناية والقبول لتكون البلاغة العربية أداة فنية وذوقية لا ينفر منها الباحث أو الدارس ، يشعر معها المتلقي بقيمة النص العربي موضوعاً وفناً، وذلك بالجمع بين الفن وجماله من جهة وبين لغة العرب الصافية (قرآناً وشعراً ونثراً) من جهة ثانية..

الكلمات المفتاحية: الدرس البلاغي، محمد حسين الصغير، البلاغة العربية.

مقدمة البحث:

محمد حسين الصغير ، باحث عراقي معاصر ، شاعر ومفكر وناقد، بلاغي، عمل أستاذاً جامعياً ولما يزل. كتب مؤلفات وأبحاثاً نقدية وبلاغية وقرآنية، لعل أشهرها تاريخ القرآن، الصورة الفنية في المثل القرآني ، الصور الأدبية في الشعر الأموي، علم المعاني بين الأصل النحوي والموروث البلاغي، ظاهرة الوحي والمستشرقين/ نقد وتحليل، المبادئ العامة لتفسير القرآن الكريم/ دراسة مقارنة، نظرية النقد العربي في ثلاثة محاور متطورة.

فكرة البحث مستوحاة من رؤية الدكتور محمد حسين الصغير في دراسة البلاغة العربية وفنونها وأساليبها وهي دراسة تجمع بين الموروث البلاغي غير الهجين والمعاصر التي دعا إليها رهط من الباحثين العرب والعراقيين في العصر الحديث...

وهي رؤية جديرة بالعناية والقبول لتكون البلاغة العربية أداة فنية وذوقية لا ينفر منها الباحث أو الدارس ، يشعر معها المتلقي بقيمة النص العربي موضوعاً وفناً، وذلك بالجمع بين الفن وجماله من جهة وبين لغة العرب الصافية (قرآناً وشعراً ونثراً) من جهة ثانية..

الباحثان

معالم جديدة:

أعجب الناس في القرن السابع الهجري والقرون اللاحقة بكتاب : (مفتاح العلوم لأبي يعقوب السكاكي، ت٦٢٦ هـ)، فألفوا حوله الشروح والتلخيصات ووضعوا عليه الحواشي والتقريرات، مما جعل البحث البلاغي – آنذاك– يتجه اتجاهاً خاصاً يقوم على الشرح والتلخيص[١].

ومنذ ذلك الحين كان لبعض المؤلفات البلاغية كالتخليص ، والإيضاح للخطيب القزويني، والمصباح لبدر الدين بن علي بن مالك أثر واضح في توجيه الدرس البلاغي في المشرق والمغرب على حد سواء؛ فقد انصرف الناس إلى هذه المؤلفات شرحا أو تلخيصاً أو دراسة فبانت المواهب الأدبية ، وغابت الملكات، وظلت البلاغة العربية على هذه الحالة حتى أطل فجر النهضة الحديثة فأحس الدارسون بضرورة أن تتغير طرائق تدريس البلاغة العربية، وأن تجدد مناهج البحث والتأليف فيها فاستعانوا بالتراث البلاغي القديم يبحثون فيه عن الجدة والطرافة [٢]، فظهرت معالم جديدة في الدرس البلاغي في العصر الحديث تدل على جهود الباحثين في هذا المضمار .

بعض هذه الجهود يقترح أن توحد علوم البلاغة العربية الثلاثة في علم واحد يطلق عليه (علم البيان)، وبعضها الآخر يرجو توحيد المصطلحات البلاغية تحت اسم: (الحقيقة أو المجاز) ثم يصلها بالناحية المعنوية للنص الأدبي عن طريق النظر إلى القيم النفسية والاجتماعية والحضارية للبلاغة العربية وأثرها الجمالي الذي تتركه في نفس القارئ، في حين دعا آخرون إلى إعادة النظر بالدرس البلاغي وفقآ لمفهوم: (الصورة أو الأسلوب) أو (النقد والأدب) دون إغفال كل تشكيل بلاغي، ومعنى ذلك إن هؤلاء نظروا إلى البلاغة نظرة شمولية متكاملة: جمالية ونفسية واجتماعية وحضارية [٣].

ومن الواضح إن معالم الدرس البلاغي في العصر الحديث يمكن أن تكون باتجاهين هما:

الاتجاه الأول: ظهور مؤلفات خاصة تنادي بتجديد الدرس البلاغي تحمل هذه المؤلفات آراء أصحابهما مثل (فن القول) و(مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب) لأمين الخولي، و(الأسلوب) لأحمد الشايب، و(مقدمة لدرس لغة العرب) لعبد الله العلايلي .

الاتجاه الثاني : ظهور مؤلفات حول بعض موضوعات البلاغة العربية ، دعا أصحابها إلى تجديد هذه الموضوعات، مثل (النقد المنهجي عند العرب) للدكتور محمد مندور و(البلاغة تطور وتاريخ) للدكتور شوقي ضيف و(الصبغ البديعي في للغة العربية) للدكتور أحمد موسى، و(البيان العربي) للدكتور بدوي طبانة وغير ذلك[٤] .

ويبرز بوضوح بين هذين الاتجاهين ثلاثة مظاهر في العصر الحديث شكلت معالم جديدة للدرس البلاغي وهي :

المظهر الأول : ويمثله الشيخ أمين الخولي الذي كان له أثر كبير في تحديد مسار جديد للدرس البلاغي في مطلع القرن الماضي، وذلك من خلال البحث عن أسس جديدة على نحو ما جاء بكتابه (فن القول)، الذي أشرنا إليه آنفاً والذي يعد من المؤلفات الحديثة التي رسمت مناهج جديدة للبحث في البلاغة العربية، وكذلك فيما دعا إليه في (البلاغة وعلم النفس) و(البلاغة العربية وأثر الفلسفة فيها)، ومقالاته المنشورة في دائرة المعارف الإسلامية، ثم في كتابه : (مناهج تجديد) الذي جمع فيه تلك المقالات والاتجاهات ونشره في عام ١٩٦١.

المظهر الثاني : ويمثله الأستاذ عبد الله العلايلي الذي يرى أهمية الغاء معظم ما ورثناه من مباحث البلاغة القديمة، والإبقاء على مباحث: التشبيه، والكناية، والحقيقة والمجاز من مباحث علم البيان. أما مباحث علم المعاني فيجب أن تهذب وتقلل على نحو ما درس عبد القاهر الجرجاني في : (دلائل الاعجاز)، أو على نحو ما درسه الزمخشري في تفسيره : (الكاشف)[٥] .

المظهر الثالث : ويمثله الأستاذ أحمد الشايب الذي درس البلاغة العربية دراسة جديدة تقوم في جوهرها على ما أسماه هو بـ (الأسلوب) أو (الفنون الأدبية) .

وثمة أسماء أخرى في هذا المضمار من أمثال : الشيخ محمد عبده ومصطفى صادق الرافعي وعلي الجارم، ومصطفى أمين، ومحمد رجب بيومي، ولكل من هؤلاء الباحثين اتجاهه الخاص في دراسة البلاغة العربي في العصر الحديث[٦] .

ولعل أبرز دراسة ظهرت في العصر الحديث وتضمنت هذه الجهود وغيرها هي دراسة الدكتور وليد عبد الله الخافجي[٧]، ولكنها لم تشر إلى معالم الدرس البلاغي في جهود الباحثين العراقيين المحدثين والمعاصرين عدا جهود الدكتور أحمد مطلوب، وخلاصة ما ذهب إليه هذا الباحث أن هناك ثلاثة تيارات جديدة وسمت الدرس البلاغي في هذا العصر وهي [٨]:

الأول : تيار إصلاحي يدعو إلى تيسير الدرس البلاغي ورفع الجمود الذي لحقه بسبب جفاف القواعد، ويمثل هذا التيار، محمد عبده، وعبد المتعال الصعيدي.

الثاني : تيار تقليدي يدعو إلى المحافظة على الموروث البلاغي من غير إجراء أي تغيير عليه .

الثالث : تيار إحيائي يرى أهمية الدرس البلاغي الحديث على أسس جديدة من : (فن القول) أو (الأسلوب) ويمثل هذا التيار الشيخ أمين الخولي، وأحمد الشايب، وعبد الله العلايلي .

ويمكن أن نضيف الى هذه التيارات تياراً جديداً آخر سعى أصحابه إلى الربط بين البلاغة العربية وبين الأجناس الإعلامية التي شاعت في العصر الحديث، ويتزعم هذا المنهج الجديد باحثان هما الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي، والدكتور عبد العزيز شرف الدين، ويسعى هذا المنهج إلى افتراض أصول مشتركة لمعظم اللغات الإنسانية التي يتوسل بها الناس في الإبانة عن أنفسهم أو الاتصال بغيرهم، كما يتصور بأن هناك سلالات لغوية قد انحدرت على أصول يمكن أن يطلق عليها مصطلح : (اللغة الأم)، ووفقا لذلك يفترض الباحثان وجود هذه (اللغة الأم) لتكون أصلا لجميع الفنون الإنسانية[٩] .

ويعتقد هذان الباحثان أن العرب القدماء قد سبقوا غيرهم في وضع أسس على الاتصال اللغوي الذي اكتشف حديثا من قبل الغربيين، ويستدلان على ذلك بما جاء عند صاحب كتاب البرهان في وجوه البيان الذي جعل ((البيان على أربعة أوجه، فمنه بيان الأشياء بذواتها، وان لم تبن بلغتها، ومنه البيان الذي يحصل في القلب عند إعمال الفكر واللب، ومنه البيان باللسان، ومنه البيان بالكتاب، وهو الذي يبغ من جمن بعد وغاب))[١٠] .

وهذه هي أبرز المناهج الجديدة التي سعت إلى إصلاح ما أفسده القدماء وتجديد الدرس البلاغي عند العرب .

الأصول :

كانت البلاغة العربية قبل أن يسيطر عليها منهج السكاكي حرة طليقة يغلب عليها الطابع الأدبي ويلف مباحثها روح يعتمد أولا على الذوق والحس والإدراك، وكان للباحثين الأوائل من أمثال : (ابن المعتز، وأبي هلال العسكري، وعبد القاهر الجرجاني، وابن الأثير) أصالتهم في التأليف، وكانت لهم مناهجهم الخاصة في البحث. ولكن مناهج البحث في البلاغة لم تبق مختلفة باختلاف هؤلاء المؤلفين فقد اتجهت كلها باتجاه واحد أواخر القرن السادس الهجري ولا سيما على يدي (السكاكي) في كتابه : (مفتاح العلوم) حتى سيطر هذا الكتاب على مجال العلم والتدريس[١١].

ولعل عبد القاهر الجرجاني يقف في طليعة علماء البلاغة العربية الذين وضعوا اللبنة الاولى في أساس البلاغة العربية في موضعها الصحيح في : (نظرية النظم)، حتى بدا أثره واضحا فيمن جاء بعده من البلاغيين ولا سيما (السكاكي)، وإلى ذلك أشار الدكتور أحمد مطلوب بقوله : ((.. ولم يؤثر في تاريخ البلاغة على علماء اختصوا بهذا العلم (علم المعاني) وبحثوا فيه كما فعل السكاكي في (مفتاح العلوم)، إنما نلاحظ في وقوف عبد القادر الجرجاني على (معاني النحو) في كتابه : (دلائل الإعجاز)، (والبيان) في كتابه (أسرار البلاغة)، ولكن هذا الوقوف لا يعني أنه ميز بينهما))[١٢]، ثم يقول : ((.. ولأننا لم نستطع

ان نبين مفهوم المعاني عند السكاكي مع ما جاء في (الكشاف) و(نهاية الايجاز)، نقرر أنه (السكاكي) أول من قسم البلاغة إلى : معان وبيان ومحسنات، وحدد موضوعات أرسى قواعدها، وأنه أول من اطلع على الموضوعات التي تبحث في الصورة والخيال بالتشبيه أو المجاز بأنواعه والكناية، مصطلح (البيان) وأنه أول من سمى غير هذه البحوث محسنات ولم يسمها بديعاً))[١٣].

ومن هنا يمكن لنا أن نميز مرحلتين في تاريخ البحث البلاغي عند العرب، كانتا تشكلان الأصول الأولى التي قام عليها تجديد البلاغة العربية، المرحلة الأولى مرحلة: ((عبد القاهر الجرجاني)) ومن جاء بعده من البلاغيين الذين أشرنا إليهم قبل قليل، والمرحلة الثانية: مرحلة ((السكاكي والقزويني)) واتباعهما...

وما دعا إليه الباحثون العرب المحدثون – ومنهم الباحثون العراقيون الذين هم موضوع هذا البحث – ليس إلا عودة إلى دراسة البلاغة العربية في مراحلها الأولى، ولا سيما عند (عبد القاهر الجرجاني) في نظرية (النظم) باعتباره صاحب اللبنة الاولى في صر البلاغة العربية ...

ويمكن للباحث أن يلحظ التشابه واضحا بين ما كتبه (عبد القاهر الجرجاني) في نظريته. وبين ما دعا إليه الباحثون المعاصرون، وقد مر بنا في صدر هذا البحث أن الشيخ أمين الخولي وغيره يرون أن التقسيم الثلاثي القديم للبلاغة : (المعنى والبيان والبديع) لا فائدة فيه، لذا دعا إلى دراسة البلاغة دراسة جديدة تقوم على تقسيم ما أسماه بـ(فن القول) إلى : (المبادئ، والمقدمات)، حيث يتم تقسيم البحث البلاغي إلى : البحث في الكلمة كعنصر لغوي قائم بذاته له أثر في التعبير، والبحث في الجملة وما يطرأ عليها من تقديم وتأخير وحذف وذكر إيجاز وإطناب، ثم البحث في الفقرة وما فيها من وصل وفصل، وما تعبر عنه من صور فنية، ثم البحث في صورة التعبير كالتشبيه والكناية والتورية ولم يغفل– بعد ذلك– أهمية البحث في القطعة الأدبية من خلال إيضاح وشائج العمل الأدبي في العلاقة بين الألفاظ والمعاني.

أما ما دعا إليه الباحثون العراقيون المعاصرون فلا يكاد يخرج عما دعا إليه، أمين الخولي، وأحمد الشايب، وعبد الله العلايلي وغيرهم إن لم يكن صدى لآرائهم وأفكارهم، وجميع هؤلاء الباحثين ((عراقيين وعرب)) لا يخرجون في هذا المجال عن دائرة (الجرجاني) في نظرية (النظم).

ولسنا نريد – في هذا الموضوع – أن نعيد إلى الأذهان ما كتبه (الجرجاني) في نظريته هذه، إذ أشار جميع الباحثين المحدثين والمعاصرين الذين كتبوا عنه أو عن نظريته أو أثرها أو أصالتها في البحث البلاغي عند العرب ولكن من المفيد أن نذكر هنا أن (الجرجاني) كان سابقا إلى دراسة البلاغة العربية دراسة يمكن أن تكون نواة ما يسميه بدراسة البلاغة العربية بوجه معاصر.

إذ إن (الجرجاني) ((جعل من (النظم) نظرية بلاغية ونقدية متكاملة الأركان، ومنهجا بلاغيا في متناول النص الأدبي وتقويمه وإطارا عاما لقواعد بلاغية تفصيلية تقدم لدارس النص الأدبي أدوات رائعة لتذوق هذا النص ومعالجته))[١٤].

والأمثلة والشواهد عند الجرجاني التي تنص على دراسة النص الأدبي دراسة متكاملة لا جزئية كثيرة نبحث أولا عن أسرار جماله الفني عن طريق تحليل بنائه اللغوي للوقوف على ما فيه من جمال أو روعة أو فساد، وهو بذلك لا يقيم شأنا للأقسام أو الفروع أو المصطلحات التي انشغل بها (السكاكي والقزويني) وإنما شغل نفسه بسبل استخلاص القيم الفنية عن طريق تحليل النص الأدبي.

ودعاة التجدد في العصر الحديث يبحثون عن أسرار الجمال الأدبي الذي يأتي من جراء النمط العالي من الكلام تلك هي الأسرار التي كان الجرجاني يفتش عنها في (نظرية النظم)، والنظم عنده يعني ((أن تضع كلامك الموضع الذي يقتضه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها أو تحفظ الرسوم التي رسمت لك فلا تخل بشيء منها))[١٥]. ويقول (ولا نظم في الكلم ولا ترتيب حتى يعلق بعضها ببعض وبناء بعضها على بعض وتجعل هذه سببا من تلك)[١٦].

إن الأسس التي أطال في شرحها عبد القاهر الجرجاني ببيان أسرار تكوين الجملة البليغة تعود كلها إلى (النظم) ومن ذلك على (سبيل المثال) ما تحدث به عن أبيات البحتري المشهورة :

بلونا ضرائب من قد نرى	فما أن رأينا لفتح قريبا
هو المرء ابدت له الحادثا	ت عزما وشيكا ورأيا صليبا
تنقل في خلقي سؤدد	سماحاً مرجى وبأساً مهيبا
فكالسيف إن جئته صارخاً	وكالبحر إن جئته مستثيبا[١٧]

ويقول الجرجاني معلقاً على بلاغة هذه الأبيات وعذوبتها وموقعها في نفس المتلقي : ((فإن رأيتها قد راقتك وكثرت عندك، ووجدت لها اهتزازا في نفسك فعد فانظر في السبب واستقص في النظر، فانك تعلم أن ليس إلا أنه قدم وأخر أو عرف ونكر، وحذف وأضمر، وأعاد وكرر، وتوخى على الجملة وجها من الوجوه التي يقتضيها علم النحو فأصاب في ذلك ثم لطف موضوع صوابه، وأتى مأتى يوجب الفضيلة))[١٨].

وواضح أن الجرجاني في هذا المثال وأمثلة أخرى كثيرة يسعى إلى النمط العالي من الكلام المؤثر الذي يستحق اسم البلاغة، فيدخل في الآذان بلا إذن[١٩].

وفيما تقدم دلالة على أن ما دعا إليه الجرجاني في نظرية النظم في كتابه (دلائل الإعجاز) هو الأسس الصحيحة لدراسة البلاغة العربية دراسة تقوم على تقويم النص الأدبي بوصفه وحدة متكاملة الأجزاء بعيدا عن القواعد البلاغية وتقسيماتها وفروعها التي دعا إليها البلاغيون المتأخرون الذين رسموا حدود البلاغة العربية فضلت كما هي في وقتنا الحاضر ولم يجرؤ أحد من الباحثين المعاصرين أو المحدثين أن يغير ما كتبه (السكاكي أو القزويني وأتبعاهما) .

محمد حسين الصغير (مثالاً) :

لا يبتعد الدكتور الصغير عما ذهب إليه الباحثون المعاصرون من أمثال أحمد عبد الستار الجواري، وجميل سعيد، وأحمد مطلوب، وماهر مهدي هلال) الذين دعوا صراحة إلى تجديد البلاغة العربية. واقتصر عمله على الوقوف على بعض آرائهم، ووسع بعضه الآخر، وذلك في بعض مؤلفاته البلاغية مثل: (أصول البيان العربي، رؤية معاصرة) و(علم المعاني بين الأصل النحوي والموروث البلاغي) و(مجاز القرآن وخصائه الفنية وبلاغته العربية).

ومنهجه في رسم معالم جديدة للدرس البلاغي يقوم على مسألة مهمة هي التفريق بين علوم البلاغة الثلاثة، وفصل كل علم عن الآخر، إذ يقول : ((إن علم المعاني قسيم لعلم البيان عند البلاغيين العرب القدامى، وهما ركنان أساسيان في الهرم الثلاثي لقواعد البلاغة بالمفهوم التقليدي ولقد لمسنا في هذا التقسيم تجوزا فضفاضا لا يلائم طبيعة المباحث البلاغية، وأن المنهج الموضوعي يقتضي الفصل بين هذه العلوم الثلاثة وإن تداخلت بعض المفاهيم فيها لسبب من الأسباب أو التقت في بعض المقاييس في جملة منها بوجه من الوجوه))[٢٠].

ولذلك نراه يضع ((علم البيان) في إطار (علم البلاغة) في حين يضع (علم المعاني) في إطار (علم النحو) فيقول : ((لا ريب أن مباحث المسند والمسند إليه، والفصل والوصل، والتقديم والتأخير، والحذف والذكر وأمثالها، وان كانت لا تخلو من لمحات بلاغية، وسمات بيانية بالمعنى العام، إلا أنها مباحث نحوية، وأن المجاز والتشبيه، والتمثيل والاستعارة، والكناية والتعريض والرمز، وإن كانت لا تخلو من دقائق نحوية إلا أنها مباحث بلاغية))[٢١].

ولعل أهم ما يتسم به منهج الدكتور الصغير في رؤيته للدرس البلاغي الجديد يقوم على مبدأ الغاء التقسيم والتمايز بين المصطلحين (البلاغة والفصاحة) وذلك من أجل مسح متوازن لعناصر البيان العربي بجمله ومفرداته، فهي بليغة وهي فصيحة في آن واحد بوصف البلاغة فنا يوصف به الكلام والمتكلم دون الكلمة المفردة وكون الفصاحة فنا يوصف به الكلام والمتكلم والكلمة[٢٢].

وهذا رأي سبق أن أشار إليه أبو هلال العسكري بقوله : ((الفصاحة والبلاغة ترجعان إلى معنى واحد وإن اختلف أصلهما، لأن كل واحد منهما إنما هو الإبانة عن المعنى أو الإظهار له))[٢٣].

ويفضل البحث عن فصاحة النص الأدبي دون التحري عن تفصيلات الجملة العربية كالإسناد والإسناد الخبري والتقديم والتأخير والتعريف والتنكير، وكل ما يتعلق بشؤون ما تعارفوا عليه بعلم المعاني الذي تكلف بالكشف عن أبعاده على النحو العربي[٢٤].

والمعلوم أن (علم المعاني) كان مثار اهتمام القدماء ولا سيما السكاكي والقزويني ولكن السكاكي لم يكن موفقا بتقسيم مباحثه الواردة في كتابه : (مفتاح العلوم) لبناء تلك المباحث بناء منطقيا فحصر به موضوعاته حصرا، ومزقها تمزيقا، أفقدها كل روح، وباعد بينهما وبين كل ما يتطلبه الفن الأدبي[٢٥].

أما القزويني فقد حصر (علم المعاني) في ثمانية أبواب هي : أحوال الإسناد الخبري، وأحوال المسند إليه، وأحوال متعلقات الفعل، والعقد والإنشاء، والفصل والوصل، والإيجاز والإطناب والمساواة[٢٦].

ومن أجل ذلك قدم الصغير صياغة جديدة لمباحث علم المعاني، وهي[٢٧]:

١. الجملة العربية ويبحث فيها قضايا التركيب الجملي في الإسناد وقضاياه العامة .
٢. الخبر والانشاء، ويضم أنواع الخبر وأساليب الإنشاء من غير تفريط أو افراط .
٣. التعريف والتنكير، ويشمل مواطن في الفن القولي .
٤. التقديم والتأخير، ويضم البحث في ميزتهما العامة بعيداً عن التفصيلات .
٥. الذكر والحذف، ويشمل الاهتمام ببيان مواردهما وفوائدهما .
٦. القصر والحصر بأدواتهما وملامحهما البلاغية .
٧. الفصل والوصل .
٨. الإيجاز والإطناب والمساواة .

وغايته في ذلك المنهج أن يتجنب التفرعات والتعقيدات في البلاغة التي أصبحت كالطلاسم المبهمة، حيث يقول: ((فالمباحث هذه – فيما يبدو لي – أعني الفصل الوصال والإيجاز والإطناب والمساواة ينبغي أن تقطع من مباحث معاني النحو لتضاف إلى مباحث البيان في منهج البلاغة العربية، لقربها منها ولصوقها بها، والمباحث المتقدمة أعني: قضايا الإسناد بأبوابه الثلاثة: أحوال الإسناد الخبري، وأصول المسند إليه، وأحوال المسند، وأحوال متعلقات الفعل، والقصر والإنشاء ينبغي أن توصل بعلم النحو، فهي معاني النحو لا شك في ذلك))[٢٨] .

لم تكن البلاغة الجديدة المنشودة المنفصلة عن النظريات القديمة كما أنها ليست عرضا لتاريخ العلوم التطبيقية على المجال الإنساني، ولكنها استجابة شرطية لما أفادته اللغة الفنية من طاقات جديدة ، ولعل الاحساس بالحاجة إلى لغة فنية جديدة أو بلاغة جديدة قد اشتد بعد ظهور السينما الصامتة، إذ كان المفروض أن يتحول المسموع إلى منظور وأن يستغني المتذوق عن الكلام بما يشاهده من حركات وإشارات للصور والرموز، ففي كل إيماء دلالة. ولم يقف الأمر عند هذا الحد فقد أحسن القوامون على الصور المتحركة الصامتة بأن جمهور المشاهدين لا يقتنعون بالمنظور على النحو الصامت، وكان من الضروري أن تتوسل البلاغة الجديدة المنظور بالكناية، فسجل الحوار لكي يستكمل المتذوق متعته من هذه البلاغة الجديدة[٢٩].

والبلاغة الجديدة تؤسس إلى علاقة متينة ما بين النص والمتلقي من خلال المطابقة ما بين الفكر (الموضوع) والأسلوب، بمعنى أن يطابق الأسلوب الموضوعات لأنها (الموضوعات المختلفة) صنعةً ورقيةً، والأفكار تختلف سذاجة وتعقيداً، وسهولةً، وصعوبةً، فيجب أن يكون الأسلوب مسايراً لهذه (الموضوعات والمعاني)[٣٠]. فضلا عن ذلك أن لا يكون الأسلوب عالياً جداً يصعب فهمه، بل يجب أن يكون في متناول عقولهم يستطيعون أن يدركوه في سهولة ويسر[٣١]، ولا يخرج المتكلم أو الكتاب عن دائرة المطابقة بل يجب أن يكون أسلوبه متطابقا لنفس المتكلم أو الكاتب ولا يقلده أو يتبعه فيخرج الكلام من روح غير روحه[٣٢].

إن اختلاط المباحث النحوية والبلاغية معا قد يوجب التعقيد والصعوبة في الدرس البلاغي العربي في العصر الحديث، ومن هنا جاءت الدعوة إلى فرز تلك المباحث عن بعضها البعض ، فلا ريب أن المسند والمسند إليه والإظهار والإضمار والحذف والتقدير هي مباحث تقع في صميم علم النحو، ولا ريب أيضا أن المجاز والتشبيه والاستعارة والكناية والتورية هي مباحث تقع في صميم البيان.. وفي ذلك يقول : ((فمن الخير للعربية ومن الصيانة للتراث أن ترجع الفنون إلى أصولها، فما غلب من منحى على فن ما، ألحق به، وما تميز بخصائص متأصلة باتجاه متميز، اختص به، وليس فيه شطط، بل فيه دقة وموضوعية، الدقة في التغلب والموضوعية في التبويب))[٣٣].

لا ريب أن اختلاط اللسان العربي بالشعوب الأخرى أوردت البلاغة العربية مجهودا، وذلك لاختلاط علوم العربية بعضها بالبعض الآخر في مراحل التأليف والتصنيف، الأمر الذي سلب العربية وجهها الجميل، ولعل السبيل الوحيد في الحفاظ على جمالية العربية وأثرها في نفوس متلقيها لا يأتي إلا من خلال الأصول الصافية الخالية من شوائب التعبير ...

الدكتور الصغير يستهجن ذلك الاختلاط الذي أدى إلى كثرة التعريفات المسندة من المدارس الأجنبية التي كانت سببا في تضليل الذوق العربي الفني، فضلا عن نفور المتلقين من النص العربي[٣٤]. ولا سبيل إلى الخلاص من ذلك النفور إلا بإسناد العلوم البلاغية العربية إلى لغة القران الكريم إذ لا شوائب في لغته ولا في ألفاظه، ولا صعوبة في لمس جماله وتحسسه فلا بحث في ذلك للغرابة والتنافر والتعقيد، ولا كبير جهد بالوصول إلى أمثلة البديع والفصل والوصل والتقديم والتأخير والتعريف والتنكير والحذف والذكر، وما شاكل ذلك مذاهب قتلها النحاة بحثاً وتمحيصا فلم يبق إلا البيان المتمثل في المجاز والتشبيه والاستعارة والكناية، وهذا هو البلاغة بعينها. وتلك هي الأصول الكبرى لفن القول، فيها يتقوم الجهد البلاغي الموروث، وعليها تدور رحى البلاغة العربية[٣٥].

وأكاد المح في ذلك صدى لرؤية أمين الخولي في هذا المضمار فقد أدرك الخولي أن البلاغة القديمة عاجزة عن تناول الأعمال الفنية الحديثة في شموليتها، بسبب ميلها إلى الأجزاء أو التقسيم مما يجعلها تقف عند حدود الجملة أو ما في مقامها، والبلاغة كما يرى أمين الخولي هي تعني بالتعبير وذات صلة بالفنون والآداب، فضلا عن أهمية الربط بين (فن القول) بالحياة[٣٦].

ويتفق الدكتور الصغير مع الاستاذ أمين الخولي في ((إزالة التداخل المضطرب في دراسة مواد ثقافتنا مع اختلافها، لنزيل مثل ذلك التداخل بين دراسة مواد العربية، فلا نخلط البلاغة بغيرها من تلك المواد))[٣٧]. غير أن الدكتور الصغير يميل إلى استثمار لغة القران وأساليبه في تحديث البلاغة العربية لتصبح حبيبة للمتذوق أو الدارس على حد سواء.

ولعل الدكتور محمد حسين الصغير أكثر ميلا إلى رأي الدكتور أحمد عبد الستار الجواري الذي يرى ضرورة تخليص مباحث البلاغة العربية من مفردات علم المعاني، وذلك لأن مفرداته (علم المعاني) ((هي في الحق معاني النحو التي لا يستقيم إلا بها، ولا تستقر قواعده إلا عليها، وهذا أمر تنبه غير واحد من الباحثين مسائل النحول، ونقد منهجه من أمثال الأستاذ إبراهيم مصطفى في كتابه إحياء النحو))[٣٨]. ويرى ضرورة أن تدرس فنون البيان العربي دراسة قرآنية، أي توظيف ما في القران من جمالية في التعبير لتقديم فنون البيان المعروفة (المجاز، التشبيه، الاستعارة، الكناية) تقديما يجعل اللسان العربي الحديث بعيدا عن التعقيد المضني الذي يجهد المتلقي، وكل ذلك حتى يصبح البيان العربي فناً عربياً أصيلاً، ((فتأنس بالمجاز استعمالاً بلاغياً، وبالتشبيه فناً عربياً، وبالاستعارة تصويراً فنياً، وبالكناية تعبيراً مهذباً نقياً، وترى هذه الأصناف لا غيرها أساساً للتمايز البلاغي، وميزانا في القول))[٣٩].

أما (المجاز) فقد انشغل به الدكتور الصغير إنشغالاً بيناً، وقدم رؤيته في تجديده، مستثمراً ما فيه من قيم فنية، ذات أثر واضح في متذوقيه. وعلى الرغم من وجود إشارات أو دراسات للمجاز العربي في بحوث الأقدمين ومصنفاتهم ولا سيما المجاز القرآني، من أمثال الفراء في كتابه : (معاني القرآن)، وأبي عبيدة معمر بن المثنى في كتابه : (مجاز القرآن)، والشريف الرضي في كتابه : (تخليص البيان)، وغير هؤلاء من علماء البلاغة العربية أو النحو العربي.

والدكتور الصغير مطلع على جهود الأقدمين في دراسة المجاز القرآني، غير أنها جهود لم تتعرض إلى المجاز القرآني بوصفه يمتلك خصائص فنية ينفرد بها عن غيره من فنون البلاغة وأساليبها، فضلا عن سمة الجمالية. فهو – أي الصغير – يدرك أن دراسة القدماء للمجاز القرآني هي دراسة تراعي المفهوم اللغوي في تفسير النص القرآني ولم تراع المفهوم أو الأثر الفني للنصر القرآني، ... هذا عن الأثر التفسيري، أما الأثر البلاغي للمجاز القرآني فلم يُدرس عندهم إلا في إطاره العام على نحو ما درسه الجاحظ (٢٥٥هـ) في كتابه (البيان والتبيين)[٤٠].

وللحقيقة يمكن القول إن الدكتور الصغير قدم رؤية معاصرة في دراسة المجاز القرآني أكثر وضوحاً من النقاد والدارسين الباحثين المحدثين من أمثال : الدكتور أحمد عبد الستار الجواري في مؤلفاته (نحو التيسير، ونحو القرآن، ونحو الفعل، ونحو المعنى). والدكتور جميل سعيد، عضو المجمع العلمي العراقي في دراسته لإعجاز القرآن وتصوير أبعاده الفنية والجمالية في كتابي عبد القادر الدلائل والأسرار والدكتور أحمد مطلوب في مؤلفاته البلاغية. فهؤلاء الباحثون قدموا رؤيتهم في دراسة المجاز القرآني من خلال الشواهد القرآنية، غير أن دراسة الدكتور الصغير للمجاز القرآني تأتي من خلال خصائص المجاز الفنية في القرآن الكريم التي تنطلق من مهمته الإبداعية ومن مهمته الإضافية للتراث، ومن مهمته التهذيبية للنفس فضلاً عن تنزيه الباري عز وجل[٤١].

فقد لخص هذه الرؤية في دراسته المعاصرة في الخصائص الأسلوبية والنفسية والعقلية للمجاز القرآني، المسندة بالشواهد القرآنية، وهي شواهد ذات صفة فنية ونفسية وتهذيبية، كان النص القرآني يراعي فيها تلك الصفات على مستوى الموضوع أو الفن، ويمكن للقارئ الاطلاع على ذلك بيسر وسهولة.

الهوامش :

(١) ينظر مقال : (آراء في البلاغة العربية)، د. أحمد مطلوب، مجلة الكتاب، السنة ١٩٦٢، ص٣٥.

(٢) ينظر : (اتجاهات البلاغة العربية)، الدكتور أحمد مطلوب، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، السنة ١٩٦٢، ع٥، ص١٧٩ – ١٨٠.

(٣) ينظر : فصول في البلاغة العربية، محمد بركات، ص٩٣.

(٤) ينظر : المدخلة الى البلاغة العربية، د. فتحي عبد القادر فريد ص٥ – ٦.

(٥) اتجاهات البلاغة العربية، الدكتور أحمد مطلوب، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، ع٥، ١٩٦٢.

(٦) أصول البيان العربي، الدكتور محمد حسين الصغير، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٧٤.

(٧) أطروحة دكتوراه على الالة الكاتبة بعنوان : ((حركة تجديد البلاغة العربية في العصر الحديث)) كلية الآداب، جامعة بغداد، ١٩٩٠.

(٨) ينظر تفصيل ذلك في : حركة تجديد البلاغة العربية في العصر الحديث، ص١١٥ وما بعدها .

(٩) ينظر تفصيل ذلك في : البلاغة بين التقليد والتجديد، ص٥٧ وما بعدها.

(١٠) البيان في الوجود، ابن وهب الكاتب، ص٦٠.

(١١) المحسنات البديعية، محاولة لدراسة بعضها بين الصيغ والوظيفة، د. قصي سالم علوان، بحث منشور في مجلة الفكر العربي، العدد(٦)، السنة ١٩٨٧، ص٤٣.

(١٢) ينظر : (آراء في البلاغة العربية)، د. أحمد مطلوب، مجلة الكتاب، العدد الاول، ص٣٤، لسنة ١٩٦٢، بغداد.

(١٣) البلاغة العربية، د. أحمد مطلوب، ص٧٢.

(١٤) المصدر نفسة، ص٧٤.

(١٥) البلاغة العربية، تاريخها، مصادرها، د. علي عشري زايد، ص١١٧.

(١٦) دلائل الاعجاز ، تحقيق الدكتور فايز الداية، ص١١٧.

(١٧) المصدر نفسه، ص٩٨.

(١٨) المصدر نفسه، ص١٢٠.

(١٩) ينظر : المصدر نفسه، ص١٢٠.

(٢٠) ينظر : نحو القرآن، ص٤٣ – ص١٠١، وينظر أيضا : نحو التيسير، ص٩.

(٢١) ينظر : أصول البيان العربي، ص٢٨.

(٢٢) الصناعتين، ص١٣.

(٢٣) ينظر : أصول البيان العربي، ص٢٩ – ٣٠.

(٢٤) ينظر : مصطلحات بلاغية، د. أحمد مطلوب، ص٥٩ وما بعدها.

(٢٥) ينظر : الإيضاح، ص٥٨.
(٢٦) ينظر : علم المعاني بين الأصل النحوي والموروث البلاغي، ص٣٦ – ٣٧.
(٢٧) المصدر نفسه، ص١١٦ – ١١٧.
(٢٨) علم البديع، نشأته وتطوره، رسالة ماجستير على الالة الكاتبة، جامعة بغداد، ١٩٧٢، ص١٨٨.
(٢٩) ينظر : البلاغة العربية بين التقليد والتجديد، محمد عبد المنعم خفاجي، د. عبد العزيز شرف، ص١٦ – ١٧.
(٣٠) المصدر نفسه، ص٥٤.
(٣١) المصدر نفسه، ص٥٤.
(٣٢) ينظر : المصدر السابق، ص٥٤.
(٣٣) أصول البيان العربي، رؤية بلاغية معاصرة، ص٢٦.
(٣٤) ينظر : المصدر نفسه، ص٢٧.
(٣٥) ينظر : المصدر نفسه، ص٢٧ – ٢٨.
(٣٦) ينظر : فن القول، أمين الخولي، ص١٠ – ١٣.
(٣٧) فن القول، ص٢٤٥.
(٣٨) نحو القرآن، أحمد عبد الستار الجواري، ص١٠ – ٤٣.
(٣٩) اصول البيان العربي، رؤية بلاغية معاصرة، ص٩.
(٤٠) ينظر تفصيل ذلك في : إعجاز القران، خصائصه الفنية وبلاغته العربية، ص٩ وما بعدها.
(٤١) ينظر : المصدر السابق، ص٨٢ – ٨٥.

مصادر البحث:

- اتجاهات البلاغة العربية (بحث)، د. أحمد مطلوب، مجلة كلية الآداب، جامعة بغداد، ع٥، لسنة ١٩٦٢.
- آراء في البلاغة العربية، (بحث)، د. أحمد مطلوب، مجلة الكتاب، ع١، بغداد، ١٩٦٢.
- أصول البيان العربي، د. محمد حسين الصغير، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٧٤.
- الإيضاح، جلال الدين القزويني، منشورات مكتبة المثني، بغداد، (د.ت).
- البرهان في وجوه البيان،ابن وهب الكاتب، تحقيق : د. أحمد مطلوب، د. خديجة الحديثي، بغداد، ١٩٦٧.
- البلاغة العربية، د. أحمد مطلوب، منشورات وزارة التعليم العالي والبحث العلمي، ١٩٨٠.
- البلاغة العربية، تاريخها، مصادرها، مناهجها، د. علي عشري زايد، القاهرة، (د.ت).
- البلاغة العربية بين التقليد والتجديد، د. محمد عبد المنعم خفاجي، د. عبد العزيز شرف، منشورات دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢.

- حركة تجديد البلاغة العربية في العصر الحديث، أطروحة دكتوراه، د. وليد عبد الله الخفاجي، جامعة بغداد، ١٩٩١.
- دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، تحقيق : فايز الداية، محمد رضوان الداية، دمشق، ١٩٨٦.
- علم المعاني بين الأصل النحوي والموروث البلاغي، د. محمد حسين الصغير، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٧.
- فن القول، أمين الخولي، القاهرة، ١٩٤٧.
- كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، تحقيق : محمد أبي الفضل إبراهيم، القاهرة، ١٩٧١.
- مجاز القرآن، (خصائصه الفنية وبلاغته العربية)، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٨.
- المحسنات البديعية، محاولة لدراسة بعضها بين الصيغ الوظيفية (بحث)، د. قصي سالم علوان، مجلة الفكر العربي، ع٦، ١٩٨٧.
- نحو التيسير، د. أحمد عبد الستار الجواري، منشورات مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٨٤.
- نحو القرآن، د. أحمد عبد الستار الجواري، منشورات مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٧٤.